الإعجاز البلاغي للمثل القرآني ((سورة يس أنموذجاً))

Miraculous Nature of Koran Parable – "*Yasin Chapter* " as a Model.

أ.م.د. مشكور كاظم العوّادي
كلّية الآداب / جامعة الكوفة

المقدّمة:

يعدّ تشخيص المثل أداة فعالة في الكشف والبيان ؛ لما يشكله من وصلة وعظية قابلة للتفرد الأسلوبي عن بقية النظام القرآني مع احتفاظها بالعلاقات والصّيغ عبر النص ، بمعنى أنّ للمثل وجهين : أحدهما ؛ يكمن في الوظيفة العامة المشتركة من ضمن نظم النص القرآني ككل والآخر :في الوظيفة الاستقلالية لإيراد الموعظة والتهذيب والاعتبار، وعندها تستحوذ الحركة الدلالية على الاهتمام الأكبر في مقاصده ؛ لأنّ الدلالة هي القضية الأساس في تحليل بلاغته واستشراف إعجازه ؛ بل الأساس البنيوي في تركيب نصّيته ،وهو ينطوي على الإشارة اللغوية ، وعندها يولي أهمية في انتقال تلكم الإحالات الدلالية عبر مكامنه المتجددة بما يرفد طاقاته بدفقات إعجازية فعالة ؛ لاسيما وأنّه موجّه توجيها عالمياً لا لشعب بعينه بل للناس كافة،ومختزل الى أقصى حد هيمنة وإبانة وحفظاً، ومتفرد في امتداداته التطبيقية اللامتناهية على خلاف ما وصل إلينا من الكتب الأخر إذ انّ وجه التحريف في شريعتي(موسى) و(عيسى) واضح من الإملاءات والمتناقضات التي لم تكن وحياً مباشرا ؛ بل هي في كثير منها ذكريات لتلاميذ الرسل.ومشاهداتهم...في حين دوّن القرآن الكريم بإشراف الرسول الأكرم(صلى الله عليه وسلم)،وبذلك بقي المثل القرآني سليما من جهة الوحي ، وقد تحرّف المثل كبقية النّص في تلكم الكتب بأقلام الأحبار والقساوسة الذين صاغوها بحسب أهوائهم-نزوعاً الى طمس الحقائق حتى لاتنكشف مخططاتهم - وهي أهواء عنصرية بالتأكيد....وكان بالاسلام حاجة الى طاقات هذه الأمثال العالية وفاعليتها على نحو أكثر عند سطوع نوره في بدء دعوته ؛ وذلك لاخماد طغيان الإعراض عن آيات الله سبحانه وتعالى ؛ ذلك أنها اعتمدت على آليّة استنباط الدليل من شواخصه المدلولاتية.. وتلك الآلية هي في سبيل تثبيت المطلوب إثباته ونفي ما عداه لذا فالاستدلال القرآني ينطوي على استحقاقات بلاغيّة يكتسبها من قوّة التّوير في أمثاله....وبذا كثر ورودها في سوره المكية ؛ لتوقظ النائمين ، وتنبه الغافلين من كفرة قريش، وعبدة الأوثان قبل أن تتحقق فيهم العقوبة الالهية التي تنتظرهم إبادة وإهلاكاً.ولمّا كان المثل في أساس تركيبه الفني يتضمن نوعاً من العرض الذي تكتنفه الموعظة والإشارة التربوية والعنصر العقائدي ، فعندها وجب وجود عرض له كما هو الحال في سورة يس إذ تناسب ذلك العرض ومفهوم مسرح القرية ؛ لكونه يمثل مجموعة أحداث مترابطة عبر الزما ن والمكان قرآنياً،وعندها يكون المثل تسلسلاً إعجازياً كاشفاً عن حوادث أخرى مطابقة ، يحاول البحث تمثل مردوداته الاعتقادية المستحصلة على الانسان المسلم بما يغني جنبته الأخلاقية ، والعلميّة في هذا الباب ، وقد قرّر القرآن بدءاً في أولئك ،أنّهم لايؤمنون، وأنّهم مقتدون ما سلف من آبائهم .وإذا كانت القصص قليلا ما تسرد على شكل مثل ، فإنّها إن اشتركت معه أعطته بعدًا إعجازياً إضافياً ؛وذلك بإسهاب نوع من القوة التأثيرية على صياغة المثل كما في هذه السورة ؛ ذلك أن ّالقصة لوحة مجتزئة من قصص القرى الموجودة في القرآن، وإن لم يذكر زمانها ، ولا مكانها ، ولا اسمها كعادة القرآن ؛ ولكنّ الإيمان بها واجب لأنّها من قول الحق الذي قصديته الهداية فحسب.وبذلك فالمثل القرآني في مغزى هذه السّورة وقصدها هو: توضيح لمحاور التّوحيد والنبوةوالمعاد على نحو تجسيدي بعنصر ممثل أو(ممسرح.).فأهل القرية وحججهم الواهية، والرسل الثلاثة بعد التعزير ، والمتشحّط بدمه وهو مؤمن آل يس ذلك القادم من أقصى المدينة.. عناصر هذا التمثيل التي جسّدت في أرض الواقع فضلاً عن (الصّيحة) التي أسدلت الستار على فاجعة القرية لعدم إيمانها ومن ثمّ قتلها ذلك المؤمن الذي دعاهم الى نصرة المرسلين .. وقبلها المشيئة الالهية التي حققت القول ؛ بإنفاذ الوعد والوعيد وبعدها الموعظة المستقاة ، بما تزيد المعنى عمقاً وتأثيراً وتجدّداً في محيط بيانه المعجز،وفي ذلك يختم المثل كما بدييء بكلمات مفادها : إنّ العاقبة للمتقين ، ومآ ل الأمور الى سيّد الكونين ، وخالق النشأتين ، مالك كل شيء ربّ العالمين. نسأل الله العلي القدير السّداد والقبول والتوفيق ..إنه على ما يشاء قدير، والحمد لله أوّلا وآخراً.

Abstract

The Koran parable depends on the old aphorism not with regard to timed requirement but as a reminder and teaching lessons, because showing it clearly is something having a significance in presenting its parable as a preliminary; then going into its substantial, then making use of its parable phase, which keeps being miraculous covering all its phenomenon and secrets and cases.And as parable, in its substantial structure, contains a kind of presentation having sermon and educational remark, and the ideological aspect, then it becomes very necessary to have a presentation as in "Yasin Chapter" which suits the concept of *field of the village*. This concept represents a variety of correlated of events throughout time and place in a Koranic frame. As a result parable becomes a miraculous never-ending unseen 'flow' of other identical events… Koran has already determined that they were unbelievers who had followed the example of their ancestors….

In case stories were rarely recited as a parable, then if they got engaged with a parable, they could give it an additional miraculous dimension as appears clearly in this Chapter (Yasin Chapter)

clarifying that a *'story'* is a curtailed feature from the village stories in Koran even though their time and place, and nomination are not mentioned there as everything is used to be in Koran. But believing in it is a religious duty as it is determined by Allah and being something for guidance to all people.Hence, the Koran parable… in this Chapter is clarification to all features of monotheism and Prophecy (al nibowwa) which is repeated deep-rooted in a parable way. People of the village "ahl al Qarya" and their ill-founded arguments… the three messengers after consolidation… and that who came from the more distant of Medina … are all features of representation established in reality, in addition to "al sayha" that ended veiled the *village calamity* owing to their being unbelievers!! And their killing the believer who asked them to believe in Allah and support His Prophets. And beforehand God willing focusing on accomplishing promise and menace and then preaching… this is because such events happen everyday, while penalty does not come but only once, though it varies according to Allah Wisdom. Thus, parable ends as it begins in words saying' ramification is awaiting the God-fearing' and everything is to be decided and determined by Allah, the Creator of all the earthly and the Divinely.

المبحث الأوّل:

في المثل القرآني:

دلالاته و مقاصده:

إنّ المثل عند القدماء ترافقه نكهة الماضي، وهو يضرب للحال أوالاستقبال أي: أنه ينحو عمقاً ما ضوياً أكثر منه بالمواضعة الحالية أو الاستقبالية؛ نتيجة تغوّره في الزمان الأوّل فقد يرافق إيراده تلقائيا تغبّر في تلكم الأزمان ، أو تسحّق في عهودها.....يقول الإمام علي عليه السّلام: ((من عرف العبرة فكأنّما كان في الأوّلين))(1) وهذا من المتوارث عند الشعوب ؛لأنّه يمثل روح الانطباع التأثيري في الأخلاق ، والتربية..وقد يرافق إيراده عدم محدوديته بأزمنة معينة، بل ينطوي على جريان تمثيلي عام سواء كان بعيداً في تمثله ، أو قريباً في مؤدّاه.

والمثل القرآني من اسمه عملية محاكاتية بين المطلوب العقدي ، والتمثيل الدنيوي؛ فالمطلوب العقدي هو: الميثاق القديم الذي تمّ استصحابه مع الإنسان عبر الرسالات كافة ، أو بمعنى أنّه الميثاق المأخوذ من الأنبياء، وقد صرفه الله سبحانه وتعالى عبر أمثاله القرآنية؛ ليعرضه بأنماط شتى تأطيرًا له واستقطاباً للاهتمام بمفعوليته؛ لذا يقول(الراغب الأصفهاني): إنّ المثل((عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره))(2).

وهو اتعاظي اعتباري أعلى في السياق القرآني وإن انطوى على ذلك أينما ضرب ؛ ذلك أنّ الموعظة والاعتبار أشد أثراً وأكثر تطلباً للتحرّي فيه كما يبدو في (سورة يس) إذ ينطبق في مصداقية أهل القرية على أرض الواقع لتقريب المفهومات والمسايرة الفكرية ، فلمّا ذبحوا الرسل عوقبوا بالصّيحة؛ووجه المشابهة هو أنّ الصيحة إماتة ،وجريمة أهل القرية أيضا إماتة لفاعلية الرسل وهذا يعطي مشابهة بين الصيحة وجريمة أهل القرية ؛ لأنّ كليهما إماتة (اخماد أنفاس).أمّا(الطباطبائي) فيرى أن((:المثل:كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب ولمّا كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه صلى الله عليه واله وسلم أن يضربهامثلاً لهم))(3) ،بمعنى أنّ المثل يقتصرعلى أن يكون كلاماً أو قصة؛ لأنّها من الأساليب البيانية الوحيدة القادرةعلى إظهار ملامحه.

والمثل باب مهم من أبواب القرآن ، وهو وجه من وجوه تنزيله، وله مقام عال في خطاباته ؛لذا فهو يحتل مكان الصدارة في القصّ والمواعظ ، وضربه يعدّ من أهم الآليات القرآنية التي تأخذ بمجامع القلوب والعقول؛ إذ تكمن أهميته في الاعتبار به ؛ لأنه أداة للربط بين آيات القرآن ككلّ والدليل على أنّه عنوان للجريان الذي يحتاج لرفد سياقي ...فقد ((أخرج(البيهقي) عن(أبي هريرة) قال:قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):إنّ القرآن نزل على خمسة أوجه:حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال))(4) .كما عدّ الشافعي معرفتها مما يجب على المجتهد في علوم القرآن فقال: ((..ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المبينة لاجتناب معصيته...)) (5) ..وذهب أبو الحسن الماوردي الى أبعد من ذلك فقال:((إنّ من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات ...)) (6) فالمثل مفترض الاعتبار كأيّ نص قرآني ، وهو من عنصرين:(الممثل له) و(الممثل به).وقد وقع الإغفال في الثاني نتيجة إهمال المحور الدلالي المزدوج للمثل.

وقد جاءت الأمثال القرآنية على نوعين: ((أحدهما :أمثال التشبيه ، والتمثيل ، والمقارنة، والموازنة.وثانيهما:الأمثال القصصية تاريخية وتمثيلية)) (7) . ويعدّ النوع الأول الأعمّ الأغلب، وأمّا الثاني فهو قليل بإزاء ذلك.ومع هذا فقد تعددت وجوه الدلالة في المثل القرآني بين المحاكاة التشبيهية، والتماثل التوصيفي من جهة، واقتفاء الأثر، والعبرة التهديدية من جهة أخرى .....أما أهم سماته فهي تكمن في :إصابته في التمثيل:أي اصابة المقصد ،وتحقيق المطالب ،وبلوغ الهدف ،بحيث يتسنى فهم ذلك الضرب للجميع...وانه سائق له على قضية مضربه، وانه محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه أي أنه ينطلق على وفق سياقات أسبقية في أم الكتاب والمكنون استشرافا لعملية استجلاء عناصر المثل القرآني، وعندها يساوق المثل في انطلاقاته الرئيسة واقعة أو احدوثة أو أقصوصة قد تكون في عالم التكوين،وهو يحتذي مثالها تدويناً وسبكا ،وكذلك من سماته المهمة:الإحقاق في القول(محق في قوله)..إذ يتضح أنّ قوله الحق ، ووعده الصدق ، من خلال

عملية التمثيل في مساراته الملتقية عند الرافد القصدي ،وعندها تفضي العملية التمثيلية الى استشراف المقاصد ،واستجلاء المطالب (8).

يقول الزركشي(:((ولمّا كان المثل السائر فيه غرابة استعير لفظ المثل للحال أو الصفة أو القصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة))(9). وقد وقعت استعارة المثل لتسخير وروده في القرآن توضيحا ؛ ذلك أن ألفاظه تحكمها ضوابط النظام القصدي الإعجازي.. .إذ الغرابة هي بالمماثلة وأوجه المشابهة فمثلا :كيف يشبه الانسان الضالّ بالحيوان (كالحمار يحمل أسفارا ....أو كالكلب..أو كالأنعام..وغيرها)..فهذا من الغرابة _بلا شك _ ؛وهي تكمن في ضآلة الممثل ولها مقاصد في التأويل لانعلمها .

وهكذا نجد الأمثال _كما يقول الدكتور أبو موسى_((تتقارب وتتنوّع وتتفق وتختلف)).(10) وهي تتعاضد على مطلب واحد بما يجعلها نسقا معجزا في مهمة خاصة ، وكذلك تتباين في أنماط أدائها البياني والبلاغي وهذا ما يحقق لها التفوّق في استحواذ المطالب وحيازة المقاصد.

ضربه وموضوعاته:

إنّ ضرب المثل القرآني يخاطب المتلقي بما يؤثر فيه عقائدياً. ولمّا كان للضرب مجموعة دلالية عامة يقع ضرب الأمثال نمطاً من أنماطها فقد((استعمل الضرب من الاعتبار المعنوي المشابه للاعتبار الحسي من الضرب بمعنى التأثير أو الضرب بمعنى الصّوغ على أصل واحد))(11).أي: أنّ إطلاق المثل له إيقاع تأثيري كالضرب على الجسد أو كالصّياغة في العبارات المؤثرة في النفس المتلقية.وعلى ذلك فالاستعمال العام هو:الضرب بالسّوط وبعده الصّياغة اللفظية؛ وهي ذات وقع نفسي في الكلمة القوية.

ويتبين لنا المقصود بضرب الأمثال أن الله سبحانه وتعالى يضربها تسييرا لدفة أمور العباد، وتمشية شؤونهم...كما يمكن عدّه من لفت التنبّه، والتبصّر؛ لأنّ المثل استثارة نفسية لجلب ذلك...ففي قوله تعالى: ((` ... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ)) (12).

يقول(الشريف الرضي):

((وهذه استعارة والمراد بضرب الأمثال _والله أعلم_معنيان أحدهما : أن يكون تعالى أراد بضربها تسييرها في البلاد وإدارتها على ألسنة الناس من قولهم:ضرب فلان في الأرض إذا توغل فيها وأبعد في أقاصيها ويقوم قوله تعالى (يضرب الله الأمثال)مقام قوله:ضرب بها في البلاد.

والمعنى الآخر:في ضرب المثل أن يكون المراد به نصبه للناس بالشهرة لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم ، وذلك مأخوذ من قولهم :ضربت الخباء إذا نصبته وأثبت طنبه وأقمت عمده ويكون قوله سبحانه ((كذلك يضرب الله الحق والباطل) الى هذا الوجه أي ينصب منارهما ويوضح أعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه ويعرفوا الباطل فيجتنبوه))(13) .من هنا تساوق ضرب المثل مع الذكر من جهة الوظيفة والاعتبار ؛لأن التذكر نقيض النسيان وضرب المثل يقابله اهمال الاعتبار قال تعالى:(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (14).. وقال تعالى:((... وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ))(15). .

ويرى(الجوبياري) في مقام التطبيق القرآني: أنّ لضرب المثل استعمالين ، فهو إمّا: للمحاكاة مع صورة أخرى أو للضرب العام.(16)؛ لأنّ المثل هو: تنصيص قرآني في معرض التوجيه التربوي والاعتباري...من ذلك ما نلحظه في قوله سبحانه وتعالى ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)) (17) .. فالمثل هنا :من باب تبيان المائز النوعي في الإيمان بين الرجال والنساء،وفائدته : أنّه لا يقتصر حبّ الله على فئة معينة،بل قد يشمل جميع من يصدق عليه العبودية الحقة لله ...وفي ضربه حكمة عظيمة أيضاً هي أنه وإن حصل الاقتران بالزواج فذلك لايحتم إقتران النظائر ؛ لأنّه قد يكون العبد صالحاً، وتحته امراة غير صالحة، والعكس أيضا ممكن لوروده في المثل .

يقول البلاغيون:((إنّ المثل يطلق على الصفات والأحوال والقصص أي: يطلق على أشكال متباينة الجامع بينها مافيها من غرابة))(18). وهذا يعني أنها تبدو للوهلة الأولى على شكل مقابلات غير منطقية ، وعند التعمق الكشفي تتبّين مقاصدها المتنوّعة والمختلفة.

فانطواء المثل على(الممثل به) يشكل دعامة عقائدية خاضعة للتحليل الفكري ، والتفكيك النصي وقد تقع البهمة في ضرب المثل ؛ لتضليل من لا يستحق الهداية ، وعندها يصبح المثل طريق هداية أو إضلال في الوقت نفسه مصداقاً لقوله تعالى((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)) (19). يقول الزمخشري ((وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل الى السبب؛ لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم، واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم...))(20) . هذا من جهة ومن جهة أخرى ((فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل اذن إلا أمرا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره الى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ألا ترى الى الحق لمّا كان واضحا جليا أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور ؟وإلى الباطل لمّا كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة.؟)) (21).

وعليه فـ(المتمثل له) هم تلك الفئة التي استقطبته فانطبق عليها،وقد أجرى الله سبحانه الأمثال سياقاً على وفق هذه قضية مضربها؛ إذ إنه ليس المهم حجم ذلك المضروب به المثل ؛ بل القدوة والعبرة المستقاة من جريانه وانطباقه على(الممثل له) ويكون ذلك باستحراث النص القرآني.

وقد نلحظ ذكر المثل السيء ،وهو قصة تحمل مثلا ينطبق على جميع الذين انحرفوا عن خط نبيهّم، ودعوته الرسالية كما هو في قصّة موسى(عليه السلام)لقوله تعالى:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ).(22).

هنا المثل السيء(سلفي) أي: ممتد أثره الرجعي الى ماضي آبائهم؛ لأنهم قد بقي فيهم من أساطير الاولين الشيء الكثير ..وفيه إشارة أساسية الى(جريان السنة الالهية في الوعد والوعيد)أي: سينطبق عليكم ما انطبق من عقوبات على الذين سلفوا)...وعندها يكون هذا المثل اطروحة سردية لمعطيات قصة متسلسلة في الحدث ؛لذا فهو انطباق جار على جميع الأمم التي تنحرف عن خط رسالات السماء؛ وبذا فالغرض((من المثل والقصص فيً القرآن غرض واحد)).(23) بلحاظ أنّ كلاً منهما يعدّ أنموذجا للاعتبار،وعليه فالذي ((يتتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصّة تعقيباً دينياً يناسب العبرة فيها)) (24).وكذلك الحال في المثل ،وإن فاقها حكمة وتطبيقاوإلفاتاً الى آيات الله وقدرته في مخلوقاته .

فمّما عدّه القران مثلاً من أقوال المشركين... قوله تعالى:((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.....))(25 ؛ لأنه مستطرد في سياق المثل ،أو هو مسوق مساق المثل كما أشارت اليه الآية. وعليه فقد يكون المثل أمرا واقعيا حصل، وقد يكون تمثيلا فحسب؛ لأنّ هذه طبيعة المثل في إيراده واستقطابه..فالتمثيل لأجل الموعظة والاعتبار، وهو مستمد من عالم الغيب؛ لذا يقول الفياض مستندا الى الآلوسي أنه لا يقتضي ذكر المثل في قوله تعالى (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ...)(26)... معللا أنّ ضرب المثل((لا يقتضي وجودهما وأمّا رجلان موجودان وهو المعول عليه)). (27)

ولمّا كان الله سبحانه هو وحده الذي يضرب الأمثال فلا يجوز لغيره في حقه ذلك ؛لأنه تجاوز على ساحته الالهية وعندها جاء المنع واضحا ...قال تعالى (فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(28)..فالمنع اذن من ضرب المثل كبقية صفات الله سبحانه التي لا تليق أن تصدر إلا منه وهي من مختصّاته الملكوتية؛ لأنّه (كليّ العلم) وأنتم الجهلاء ، لذا وبّخ صاحب ضرب المثل في(سورة يس) وهدّده بأشدّ الوعيد وأقصى العذاب فقد وصفه بالناسي، وهو توبيخ شديد.

ومن هذا الباب فقد جاء أسلوب(التصريف الجرياني) في الأمثال مطردا ؛لاستيفاء المضمون القصدي فيها، قال الله سبحانه وتعالى :((انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً))(29) وقال تعالى((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)) (30)..

فـ(التّصريف الكلي) يفيد الإيمان لكن الذي حصل أن كفر الناس ، والكافر يستر الايمان، ويحجزه ،ويأبى الله إلا أن يتم نوره ...فقوله(إلا كفورا):أي ستورًا للحق، وأكثر نفاقا ..فهم ساترون للحق بنفوسهم ولكن القرآن بأمثاله كاشف لهم ؛لذا كان الله سبحانه يدحض الباطل، وإيتاء الحق بضرب الأمثال، وهو من التفسير الأحسن وبذلك يسند رسوله ، ويعززه قبال دعوة الباطل، وعند ذاك فالمثل في التصريف كاشف توضيحي بياني حجّة من القرآن نفسه .

أمّا موضوعاته: فيقف في مقدمها التوحيد والنبوة والمعاد والحساب، بل يدخل في جميع مقاصد القرآن بدليل أنها متداخلة في كلّ الأغراض ، وهي تخدم البغية القرآنية.وإذا كان ضرب المثل لما قد خفي والملكوت مصداق لذلك فنجد أنة يضرب لمقاربة الفكر مع المكنون الالهي في ملكوته من الآيات الساطعات والبراهين البالغة والحجج الكاملة لله على خلقه ، ومن ضمنها القرآن الكريم ... أو في سلوك عبده الذي يجب أن يهذب بالضّابط القرآني عبر التمثيلات والقصّ والخطاب .ويحدّد(الفياض) الموضوعات التي عالجتها الأمثال القرآنية القياسية في طائفتين :كانت تتجه الأولى في موضوعها الى السلوك الانساني إزاء رسالة الله و دعوته، فيما اتجهت الثانية الى ملكوت الله ومخلوقاته.(31).

ولمّا تحدثت هذه الأمثال عن وحدانية الله والحق والهداية وبطلان الشرك ومعتقداتهم؛ فقد أوضحت ذلك بمقارنات ومقابلات بين المؤمنين والمنافقين، أو بين المهتدين والضالين ، أو بين الجنان والنيران..وهذا تقسيم آخر لضرب المثل إذ عمدت الى هذه لأهميتها التقابلية ؛فجدليّة أحدهما إزاء الآخر هي النتيجة ؛ ولتوضيح ذلك نقول : إنّ جدلية التناقض قادرة على كشف النقيض بنقيضه بما يسمّى بـ(تقابل الأضداد) في اللغة، وهو مايفضي الى تعريف كلّ منهما بالآخر كمقابلة(النور) بـ(الظلمات).

تحليله وإعجازه:

يكمن تفسير المثل وإعجازه في الاعتبار، والاستبصار أو من حيث الشبيه ، والمشبه به (اكتشاف طرفي المثل وموضوع التماثل) ومن ثمّ استلال الفكرة الرئيسة من النص . أمّا إعجازه فمتأت من الهيمنة الإعجازية في ضربه ؛لأنّه من الإعجاز العام الذي تتوضح ملامحه في كلّ القرآن؛ لأنّ المثل يرتبط نسقياً بالإعجاز النظامي، فينطوي على جميع هذه الملامح مضافا اليها النكتة النورية التي لا تستكنه إلا للراسخين؛ وعليه فموضوع المثل وجدليته تكتسب بعداً آخر وهو: الإعجاز ...فالمثل المعجز يتبوّأ مكانة خاصّة في عالم الأمثال ، إذ يتفرد لكونه لا نهائي الحدود في الضرب والتطبيق،وغالباً ما يكون معجزا بلاغياً مكللاً لأطراف المثل ، وقد يأتي في كل الوجوه والمجالات بحسب مقصد

المحاكاة - التي تمثل روح المثل- ونمطيتها كالمثل العلمي المعجز المستوحى من عملية إحياء العظام وإكسائها وهي رميم لقوله تعالى: ((قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)) (32).

.وعند النظر الى مافيه من عنصري البيان والكشف وغيرها يتحوّل المعنى الذهني الى ماثل في صورة حية، وقد فشا استعماله على نحو الاستعارة التمثيلية(33) وهي الإحالات الذهنية بالارتسامات اللفظية المتشكلة له؛ولذا فمآل المقاصد البلاغية الى الاستعارات دائما، وهذا ما سلكه المعنى الذهني ؛ لأنّ مصبّ المثل في الاستعارة أي ينتهي بها " لأنّه مثل" أي: يورد بألفاظ بوصفه مثلا وهذه كلها (نقلات) من الاستعمال الحقيقي الى الاستعمال المجازي ومن ثمّ يتسق المغزى، وهو مدار عملية التمثيل بطرفيه ،وبعدها يتم النظر في العناصر التي تتكون منها ا لصورة ؛لأنّ الدقة في اختيار هذه العناصر هي التي تكسب الصورة ثراء وتجعلها أقدر على التعبير، والإيحاء . وبمقدار شمول الدلالة واستيعابها تكون منزلة التمثيل وبلاغته (34).

وتتضح في التحليل علاقة المثل بالإعجاز، والإيجاز، والإحكام.فأمّا إعجازه فمتأت من انتظامه وعدم إخلاله زماناً ومكانا ، فلا تغير فيه على مدى الأزمان والعصور؛ لتبقى كلمة الله هي العليا وهي بعين االوقت هي كلمة الرسل، أمّا الكافرون فكلمتهم السفلى : وهي كلمة الباطل بنص القرآن الكريم .(35)

وأمّا علاقته بالايجازفهو الروح المتقدمة في مقاليد الإعجاز، إذ يتجحفل الاعجاز حول عناصر الإيجاز على نحو استقطاب معنوي يرفد النص بطاقات خلاقة فوق إمكانات البشر واستطاعاتهم وهم لا يستطيعون الاتيان بمثله ..أمّا ما يتصل بالإحكام فكل الاعجاز محكم، والاحكام القرآني سمة فاردة، وخصيصة واحدة ،وبالحصر في القص والأمثال ،وبما أنها جزء من النسيج فيشملها المكنون الاعجازي بالروح الإعجازي ،وهذا كله من لدن حكيم خبير.

وإنّ المثل القرآني قابل للتفسير والتأويل في حركتيهما ، وهما يمثلان المجهود البشري المنصب على التحليل النصي باعتبار أنّ المثل هو قطعة من النص المعجز، وعندها يكون قابلا للتحليل تفسيراً أو تأويلاً ليعطي الثمار المقصودة والأبعاد المتنوعة.وعلى ذلك تكون هذه أدوات للعلوم القرآنية بما يمكن استلالها في تحليل الأمثال مستفيدين من الخصائص التحليلية الفائقة لهذين العنصرين،أو بمعنى أنّ المثل القرآني هو من باب استقلاب الكمائن في تدبّر نصوصه ، والتأمل في مضموناته بآليّة التفسير والتأويل المتواكبتين مع التطور العلمي وتجدّد الحدثان .

لذا يقع المثل بين التفسير والتأويل متأرجحاً ، والدليل على أنّه جزء من النظام القرآني الذي يحتمل كليهما.بمعنى أنّ الارجوحة البلاغية مستوطنة في لباب المثل، وهذا يشكل مفتاحا دلاليا لاستلهام مواعظه ومقاصده الشريفة.

ولمّا كان هناك اعتراف نصّي بالقرآن فإنّ الأمثال جامعة كلية في هذا الباب بدليل قوله: ((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)) (36) ، وعندها فهناك وجهان للاستنطاق المثلي فبمصداق شرح الآيات يتطلب التفسير ظاهراً وإن أمكن بقليل من التاويل لاستكمال النواقص التفسيرية يكون للمثل تفسيراً يتمكن في درجة مستواه أي :أنّ المثل مرتبط من الناحية النظامية بمستوى معين من الدلالة والمعنى، وهذا خاضع الى دقة الايراد القرآني في دلالة المثل، وسياقاته في السورة. وبمصداق يأتي تأويله تصبح للمثل طاقة تأويلية بعيدة المدى لا يحصل فتحها إلا حين التأويل . وللمثل أصل واحد، واستنساخ متكرر، وهذا هو عين التّصريف ؛لجريان التطبيق في القرآن ؛.بمعنى أنّ التصريف يختص بالأمثال، والتفسير عام لجميع الآيات وعند اشتراك العام والخاص تتبدى الفحوى التحليلية كاملة للمثل.؛لأنّ التواطؤ الزماني مرتبط بطرفي الحقيقة التاريخية ، والنص الممثل ، وأنّ ارتباطه هو عين الإعجاز في كل سور القرآن إذ تقع الفطرة على أواصر الإرتباط من باب كونها عاملاً مؤشرًا للجذب الأوّل بين القدرة الالهية والطبيعة الانسانية.(37)..

إنّ المثل قصّة لا متناهية الأبعاد، أو قصّة متكرّرة بشواخص متعددة ،فمثلاً منظومة صراع الحق ضد الباطل في (قصة موسى وفرعون) تتكرر بمشاهد، ولكنّ المثل الموسوي يبقى المثل الدلالي الأوّل في القرآن عليها .

أمّا هنا فقد استطردت (يس) في ذكر المثل جاعلة منه قلب القلب ؛ وعندها جاءت القصة فيها على طوله ؛ لأنه يمثل سردا لابدّ من استيفاء مداليله على نحو تام بمعنى أنّ المثل هو لباب المسعى لبلوغ المقاصد.ولمّا كان المثل هو قلب القلب في يس؛ فإنه بذلك مركز للمعاني المفتاحية والمقاصد التوحيدية الكاشفة ممّا يجعلها نبعا فياضًاً بتلك الآيات الغرر التي تحييّ الموتى من رقداتهم. (38)..

المبحث الثاني:

أمثال سورة يس وإعجازها البلاغي:

الأمور الأساسية في السورة:

تناولت هذه السورة كبقية السور المكية أموراً أساسية ثلاثة: تمثّلت في :الحديث عن كفار مكة المكذبين بالقرآن العظيم وهذا أولاً ..وثانياً: الحديث عن أهل القرية الذين كذبوا الرسل عليهم السلام...وثالثا: الأدلة والبراهين التي تدلل على وجود الله ووحدانيته ..(39) .فأمّا سبقه بالحديث عن كفار مكة ورسالة محمد(ص) فذلك لأنها المدخل الى القص المثلي لتقدم نصّها وهذا يترتب عليه تقدّم متسلسل، وهو تسلية الرسول (ص) ممّا جرى قبله من الرسل .وأمّا حديثها عن أهل القرية الذين كذبوا الرسل فهذا لبّ الشاهد؛ ذلك أن القرية جاحدة بربها، وأنعمه كما جحدت قريش أمر محمد...فالمثل هنا استيفاء بياني تسلية لما أصاب قلب محمد من الأمر نتيجة جحود قومه بل محاولتهم قتله.

وجاءت الأدلة والبراهين على وجود الله، ووحدانيته بالمشاهد الكونية المتعددة(كالأرض والسماء والليل والقمر والنجوم والفلك المشحون والأنعام وغيرها) مصاحبة للمثل، وهي قرائن توضيحية تعزز مهمة المثل في الولوج الى لبّ الموضوع، وإبانة المقصد...

كما أوضحت على نحو التقابل أحوال أهل الجنة وأهل النار ومآل كل من الفريقين (هؤلاء في النعيم وأولئك في الجحيم).وكانت المقابلة بالمثل؛ وذلك لعرض نتائج ملحمة الدعوة بين الحق والباطل أي: تحصيل حاصل، ونتائج مترتبة على تحقق الدعوة.

وفي آخر السورة يأتي الحديث عن القضية الأهم بتركيز وهي قضية البعث والنشورفي صورة حوارية مفعمة بالبيان القرآني المعجز؛لأنّ هذه القضية من أهم القضايا العقائدية التي نوقشت في السورة ، كباقي السور المكية، فالقصّة في السورة تنطوي على جهتين :كلّ منها تساق الى الجزاء:فإحداهما:إبادة وإهلاك (الصيحة للقوم الطاغين) ومن الطرف الآخر :بعث وإحياء في قوله تعالى ((إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)) (40) ..للموتى على نحوعام أي أنّ (الحياة والموت)هي قضية لا يملك زمامها إلا الله بدليل أنّه يخلق ويهلك ويبعث كيفما يشاء.وهنا المثل ذو خطوط حركية متعددة ليشتمل بدءاً من إرسال الرسل ، ثم اماتة أهل القرية حتى بعث الجميع ونشرهم للمجازاة....فالنشر والمعاد ملحق لازم بالتوحيد؛ لأنّ عقيدة التوحيد يجب أن تؤول الى حتمية تاريخية الى يوم الحساب العام وإلا انتقض مبدأ العدل الالهي من أساسه.

ويقول الرازي في مقاصد السورة أنّها تقرر((الأصول الثلاثة بأقوى البراهين: فابتدا ؤها بيان الرسالة بقوله (إنك لمن المرسلين) ودليلها ما قدمه عليها بقوله (والقرآن الحكيم) وما أخره عنها بقوله (لتنذر قوماً) وأنتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) إشارة الى التوحيد وقوله (وإليه ترجعون) إشارة الى الحشر....))(41) .

وعليه فقولهم :((إنّ لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس)) (42) من باب أنّ القلب يترهب من أمر المعاد ...وقلب القرآن أي : لبابه الذي تسطع منها أنوار الآيات.. وقال الغزالي((إنّ ذلك لأنّ الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرّر في هذه السّورة بأبلغ وجه)) (43). وهذا يعني أن الحشر مداره على القلب. والقلب يمثل جميع آمال الانسان ولوازمه وتوابعه؛ لأنّه مركز الاستشعار، والترصد الايماني،أو قول المرحوم سيد قطب إنّ هذه السورة :((ذات فواصل قصيرة وإيقاعات سريعة)) (44) ، إذ إنّ هذه الفواصل كفيلة بهزّ حركة القلب...

ولما لهذه السورة من قدسية تحضيرية خاصة للموتى؛ فإنها تقرأ على رأس الميت ، ويستشفّ من هذه القرينة أنّ لها تعلقا إشاريًا بأجواء مدخلية الموت وولوج القبور خصوصا في الليلة الأولى والثانية للدفن بما تسمّى بـ (ضغطة القبر)وعندها يستحبّ معها صلاة الوحشة.(45).

مواردها وترابطها:

ورد المثل الأول في هذه السورة قوله سبحانه وتعالى ,((وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ .....)) (46) .. يقول الزمخشري في معناه ((ومثل لهم مثلاً من قولهم : عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد أي: على مثال واحد والمعنى :((واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ...)) (47).

وهو مثل قصصي أي الأساس هو المثل وتكتنفه القصة سياقا. أو يمكن تسميته بـ(القصة المثليّة) التي كان الأساس القصّ فيها ويكتنفها المثل سياقا على وفق المقتضى الالهي،والمثل فيها :شهادة المرسلين ، وتضحيتهم تجاه قومهم العاصين ؛ لذا فقول المرسل :(إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (48) ..هو النتيجة المنطقية الحتمية ؛ لأنّ عدم عبادة الله تؤدّي الى الضلال الحتمي ..

.أما صيغة المثل واسلوبه فقد جاء لالفات تنبّه القاريء الى أنّ الأمر يحتاج الى تجديد الأمر بالقول ،وهو نوع من إلفات النظرالى أهمية الموضوع وخطورته.

أمّا المثل الثاني فهو سرد قصصي على سبيل المثل عرضه القرآن بقوله تعالى : ((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ..)) (49) ..أي: أنّ خالق السماوات والأرض قادر على أن يبعث العظام مرة أخرى ، وهو بكل خلق عليم . وهو مثل اعتباري معضّد بالروادع الالهية،والتوجيهات الرسالية، والاستدلالات القصية والمثلية المفحمة، وعندها يصبّ الاعجاز على نحو أليق بالمثل؛لأنّ المثل يحاكي مطالب النفس الانسانية.وهنا يقول الزمخشري ((:فإن قلت لم سمّى قوله (من يحيى العظام وهي رميم) مثلا ؟ قلت :لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي انكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه ؛لأنّ ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل :من يحيى العظام على طريق الانكار؛ لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه كان تعجيزا لله وتشبيها له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه...)) (50) .

فتساوق المثل مع التمثل يعطي انطباقا وعطيا يكون حاضراً لتناول النفس المتعظة بما يثير نوازع الارتداع لديها والإثارة الايمانية عندها؛لأنّ الحوار الاستبطاني ينطوي على مفهومات عقائدية وتربوية وقصدية.وقد ضرب في القصّة مثلاً لهم بأمر الله وسماه مثلا وإن لم يكن كذلك((لما اشتمل عليه من الأمر العجيب، وهو إنكار الانسان قدرة الله تعالى على إحياء

الموتى مع شهادة العقل والنقل على ذلك .)) (51) وعندها فلا منافاة بين هؤلاء المشركين آمنوا أو لم يؤمنوا ؛لأنّ المثل قد حقق قصديته لاتمام الحجة على الناس بتثبيت الخطاب وتبليغ الرسل وبيان نعم الله وآلائه..

ويتمثل الترابط القصدي للمثل القرآني في الائتلاف النظمي على وفق القصد بمعنى أنّ الترابط والنظام في المثل يستوجبان عدم الاخلال بحذف خرزة من خرزاته؛ لأنّ ذلك يؤدي الى انفراط العقد ، وعندها فالترابط في نظام العقد يتطلب قصديّة واضحة وحركيّة منتظمة خلال حياته، وهو ما ندعوه بالنظام الإعجازي المنضوي في ثناياه على وفق الترتيب السياقي الذي يحقق مقاصد النص، لأنه ارتباط جواري لمقتربات النص بما يسهم في توضيح معطياته الأصيلة ، لذا كانت الوحدة السياقية هي الرائد التحليلي الصحيح في تفكيك البنية القصدية للنص المثلي لا الترتيب الإيرادي، وهو ما تصالح عليه وضعا بحسب مقدمات النص ..أو هو على حسب الورود فقط . وهذا ما أكده الشيخ الجرجاني في بناء المثل القرآني معتمدا على الترتيب القصدي ، وهو ما سمّاه بالنظم الذي عدّه عماد إعجاز القرآن(52).وقد بينا أنّ هذه السورة تقرر أصول العقيدة الثلاثة :التوحيد والنبوة والمعاد...وهي الايمان بالله ورسله وكتبه وباليوم الآخر. فهذا المثلث هو المدار في تبسط الأمثال ووضعها وعرضها في مشهد قرآني رائق ؛لأنّ الايمان مدعاة لتثبيت النص القرآني الذي يقوم بمهمته عاملا إروائياً لشجرة التوحيد في ا لقلب . ومن هنا فإن هذه السورة لما لم يكن فيها الا إعمال القلب فقد سمّيت قلبا؛ لذا ((ورد في الأخبار أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ندب الى تلقين (يس) لمن دنا منه الموت وقراءتها عند رأسه ؛لأنّ في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية؛ لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة)) (53).

ًإذاً:اعمال للقلب وتصديق بالأصول أي :تذكرة للقلب بأصول العقائد حتىّ حين النزع الأخير ...ولمّا كان القلب هو زعيم الحواس ،وحين الموت تنفرط القوى ،وتضمحل الحرارة الغريزية؛ فإنّه يقوم بتعويض هذا الانفراط والاضمحلال، وذلك بفعل تلاوة (يس) على رأس المغشي عليه لاستنهاض بقية الحرارة القلبية المفعمة بالإيمان (استنهاض قرآني قلبي).

وكذلك ما يوضّحه من ترابطها القصدي : قوله تعالى((لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) (54) لأنّ الصراط المستقيم عليه جميع الرسل ودعوتهم كلها واحدة بلحاظ التوحيد لله الواحد الأحد.أمّا تحقيق ا لقول فله تحقق بمفردات المثل، ذلك أنّ القصّة كلها تعبير عن مسار الحق في أهل القرية .

إذاً إرسال .. فرفض للدعوة.. فإهلاك ...وهذه الثلاثة تمثل مراحل المثل والقصّة مدمجة في سياق واحد وهذا السياق مقطعي له تقديم وله خاتمة ...من الحشر الى التأسف....فالحشر هو المجازاة في الميعاد أي جزاء مؤجل ...وهذا يتبعه تحسّر وتأسّف بمصداق قوله (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)(55) ؛ لأنّ اطلاق هذا القول معناه لماذا لايتعظون بقدوم الرسل؟ أي نحن نأسف على ضلالتهم واستمرارهم في التيه فالله سبحانه لطيف بعباده، ولكن العبد ظالم لنفسه جاحد لربّه

عناصر إعجازها :

ما المقصود بالعنصر الإعجازي:

العنصرالإعجازي : هو العنصر الحي المتنقل في مقاليد النص والباعث على ديمومته ولألآئه المتشعشع،بمعنى أنه دفقة حيوية في بناء النص فهو يكسبه خلوداً وتجدداً وتطبيقا ،وعندها فآلية هذه العناصر فعالة مستديمة؛لانسداد باب الاتيان بمثله هذا أوّلاً ، والاستنباط المعنوي في جنباته ثانياً، وكمون الايجاز التثويري فيه ثالثا ..أما قصدية المثل فهي الغايات التي يتوخاها ، والمطالب التي يجب استيفاؤها من هذه المهمة،وهي السّمة الجامعة للمثل القرآني...فكما أنّ الآيات لايمكن الإتيان بمثلها؛ فإنّ الأمثال لايمكن ضرب أمثالها لقوله تعالى:((.... فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ...)) (56).... وهو نهي صريح في عدم ضرب المثلية وهذا تابع أيضا لتحدّي الإعجاز؛لأنّ الأمثال القرآنية تسلك في مساقات النظام الإعجازي كبقية العناصر الآخر، وهي وثيقة الصلة بالحقائق القرآنية والفطرة السليمة، وعندها تندرج ضمن ثوابت الاعجاز البلاغي أي: احتذاء طريق الاعجاز... (57).وأهم هذه العناصر الإعجازية الآتي:

افتتاحها المقطعي:

يرتبط التنزيل القرآني بالمقطع من خلال ورود أول مقطع في سورة البقرة((الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ)) (58) مصحفياً،فالمقطع وبعده كلمة ((ذلك الكتاب))ليشير الى الكتاب المبين....فـ(ذلك) هي الاشارة البعيدة الى الكتاب المبين وهو شيء معنوي وعندها المقطع كاشف لبابي للكتاب الذي لاريب فيه وتفصيل كل شيء. يقول الأستاذ المرحوم شرارة:..((وحيث إنّ الحروف المقطعة مفردة من مفردات التميز البلاغي و الاسلوبي -كما رجّحنا –فقد ناسب أن تتكرر في السور المكية مع تنوع صيغها تأكيداً على تفرّد القرآن ومخالفته المعهود من كلامهم))(59) .وبذا يحتمل الافتتاح المقطعي لهذه السورة عدّة وجوه ...فالرمز الانساني المحمدي كأتم انسان، أو يس نداء لقلب الايمان ، وبما أنّ قلب الايمان متمخّض لله فكان الاستفتاح بهذه الصورة خلوصاً ايمانيا من النبي لله سبحانه وتعالى ،وعندها يكون المقطع مفتاحا بوابياً لتصريف الأمثال داخل السورة .

ولمّا كانت الأمثال تقترب بالنكتة القلبية فذلك لكون تصريفها متأت من تشابه المثلات ، وهذا التشابه ليس بالمستوى الحسي بل بالاستشعار القلبي الذي هو احساسات ومشاعر.ومن هنا تصلح هذه السورة المشحونة بالعقائد أن تكون مآلاً قلبيا للتجحفل المثلي ، وجمع مهامه الإيمانية بأكبر عديد ممكن .

ولمّا كان كثير من السور المكية تتحلى بافتتاحها المقطعي ؛ فذلك تنبيه على مشروعها في بداية الدعوة وتحدي المشركين وتعجيزهم ، وبذا فهو من عناصر الاعجاز النظامي الذي هو في أحد جوانبه إعجاز نظمي، وهذا يعني أنّ المثل يخضع للنظام الاعجازي العام ، فضلاً عن تميّزه بالخصوصية المتفرد بها وهي ضرب المثل .
وإنّ الافتتاح القسمي (والقرآن العظيم) في هذه السورة هو من اقتران المقطع با لقرآن ، ويقال هنا إنّ المقطع ممهّد للمثل لأنّ الخطاب موجه الى(يس).ولمّا كانت هذه السورة تسوق أصحاب القرية التي جاءها المرسلون وهم رسل عيسى (عليه السلام).الى(انطاكية) ؛فإنّ سياقات المثل هي تنضيدات قصدية تحاكي ببلاغتها مقاصد الكتاب.وعليه يشير المستهل الافتتاحي بمدلول خفي الى القلب فهنا بدلاً من الاشارة التي لحظناها في سورة البقرة حصل التصاحب مع القسم للكتاب أي أنّ الكتاب اقترب أكثر من البعيد في (ذلك)، وهذه المصاحبة المعنوية لـ (يس) مع الكتاب لأنها القلب.على خلاف بقية السور التي لا مقطع فيها كالأنفال والتوبة وغيرهما إذ تخلو من هذه الصفة .
فافتتاح هذه السّور بالمقطع يعني كثرة ورود الأمثال فيها والعكس بالعكس ودليلنا الاستقراء القرآني.ولمّا كان موقع يس هو القلب فكذلك أمثالها هي قلب أمثال القرآن والله أعلم.
...ويرى الفخر الرازي أنّ في ذكر الحروف في أوائل السور دلالة على أنها غير خالية من الحكمة ؛ ولكن علم الانسان لا يصل اليها بعينها . (60)
إذاً مجيء هذه الحروف لحكمة مجهولة، ولكن يمكن الإشارة الى بعضها باسلوب الدوران حول اللبّ، واستشرافات ثانوية من المركز، وهو لا سبيل الى ولوجه واقتحامه.

ممهّداتها وسياقاتها:

إنّ التمهيد هو نافذة تشويقية لتقديم (الباقة المثلية) على شكل عبقات معنوية من المواعظ والحكم،وتتجلى أهميته هنا لكون المثل القرآني خارقا للعادة وليس في طبائع الناس ، ولا من طاقاتهم، بل هو تابع للنظم القرآني المعجز الذي لا يمكن الاتيان بمثله، وعندها كانت به حاجة الى لوازم الخطاب القرآني لتمهد الدخول الى مراداته، وهذا واضح في السرد المثلي .
والتمهيد للمثل القرآني في هذه السورة هو سابق بالذكر النصي ثمّ إنّ قصة القرية تنطوي على مرسلين ، والتمهيد أيضا انك من المرسلين مخاطبة للنبي محمد (ص). ومن هذا نلحظ الترابط بين التمهيد وصلب القصة بمعنى أنّ التمهيد قد استغرق نصا كبيرا قبل بدء المثل وبيان القدرة الالهية والآلاء السماوية، ثمّ يلج المثل في القصة مستعرضا المحاورة القصيرة بين الرسل وأهل القرية ثمّ التحسر لمآلهم بقوله تعالى :((يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ))..(61) والمثل هنا يدل على أنّ الله تعالى قد حكم بين هؤلاء الرسل بإدخالهم الجنة، وبين قومهم بعقابهم بالصيحة،فضلاً عن تدرج وتيرة العقوبة فيهم بمساقات السورة أي: هي مشروطة بأفعالهم .
ومن هنا فالآيات الكونية الواردة ذات صلة بالسياق المثلي ((وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)) (62) (.. وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) (63) (..الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)).(64) وهو استعراض مستمر للمشيئة الالهية المطلقة، ولكنه في هذا المقطع يتطرق الى قدرته في التكوين وتحريك الكواكب والأفلاك والايقاد من الشجر الاخضر وغيرها.... بحيث لا تخرج ذرّة عن امكان سيطرته..وهنا إلفات نظر الى بدائع صنع الخالق المدبر ووضوح آياته في الآفاق والأنفس .وهذا مما يجعل القلب يستعد انشراحا للدخول الى باحات المثل وأفيائه الظليلة. ((وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير)) (65). وتتوطد هذه العلاقة على صعيد الصّياغة والإعجاز وتبيان الومضة العقائدية في أن المحرك الرئيس لكلّ هذه المحاور الله سبحانه وتعالى صاحب الكتاب الحكيم ومرسل المرسلين..
نقف من ذلك عند تحليل الباقلاني لمعنى قوله تعالى((وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ *وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)).(66).يقول:.((ثم تأمل قوله{الآية}.هل تجد كل لفظة وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شروط القول البليغ؟
فإذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تجوز شأو المألوف ؟ وكيف لا تحوز قصب السّبق ولا تتعالى عن كلام الخلق ؟)) (67) وعليه فالبلاغة الاعجازية في هذه السورة هي البلاغة التي لا يمكن تسلق سلالمها من البشر أو القول : إنّ هذه البلاغة تكمن في سيرورة النّص وهي تتطلب تفرداً في النظم والسياق.
..وفي ذلك يقول الطباطبائي : ((..كأنّ الليل أطبق عليهم وأحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره وضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانياً بإنطباق الظلام واحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية)) (68).
إذاً الآية الكونية توشّح المثل بتعزيزات كونية وعلمية على امتداد قدرة الباري على كل شيء فكان من الحري بأهل القرية أن يخافوا من هذا العظيم القادر على كل شيء .
ومن تمهيدات المثل _التي تمثل مفاتيحه الجانبية لاستشراف مكامنه من خلال الوحدة السياقية_ : المجاز الاستعاري وأنماطه المرتبطة بالمثل ؛ لكونه يعطي انطباعا ضافيا على أن العملية التمثيلية محبكة والتصوير راسخا بحيث يكون

المتلقي متمكنا من التعاطي مع التمثيل على أفضل الوجوه ؛ لأنّه قد استلم أدوات الاستيعاب من النص نفسه بتأثير ذلك النص المعجز ... نستشرف ذلك عند قوله تعالى((:قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)).(69) ..يقو ل الشريف الرضي ((وهذه استعارة لأن المرقد ها هنا عبارة عن الممات فشبهوا حال موتهم بحال نومهم ؛ لأنها أشبه الأشياء بها وكذلك قوة شبه حال الاستيقاظ بحال الإحياء والإنشار..))(70)..

فالاستعارات المجازية والتصويرات الممهدة نافعة للمثل في إبانته من باب كونها قرائن تقريبية رافدة له بطاقة اضافية للولوج النفسي ، أو بعبارة أخرى فهي قرائن تقريبية تعزيزية للحملة البيانية له بما يقوي جحافله الايمانية في النفس الانسانية ،أو كقوله تعالى: ((لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)) (71)، وهنا يتميّز النّص بالقوّة والفرادة فقوته مستمكنة وقابلة للتناقل الذهني الى المتلقي محدثة التأثير القلبي والصّدع النفسي ؛لوجود الاستعارة والمقصود بالحيّ في الآية ((الغافل الذي يستيقظ اذا أوقظ ويتعظ إذا وعظ فسمى سبحانه المؤمن الذي ينتفع بالإنذار "حيا" لنجاته ، وسمّى الكافر الذي لا يصغي الى الزواجر ميتاً لهلكه)). (72).

وكذلك الحال فيما حملته الآية من مقابلات سياقية دلالية فهي مهمة أيضا؛ لأنها تزيد من الرصيد البلاغي للمثل قوة ، وبهاء فضلاً عن هالتها التأثيرية المباشرة.

ويعدّ الحوار والسّرد القصصي من أساليب التمهيد الاحتجاجي ؛ لاستلفات الولوج الى تفاصيل المثل وسرد القصة ..من ذلك قوله تعالى ((قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ....)) (73) ((..قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ..))(74) ويبدو أنّ هذه المحاججات قد أخذت وقتاً ؛ لأنّه تم التعزيز بثالث بعد مضي لأي من الوقت فعزز قوة الحق بهذا الثالث حتى إذا ما أتى الناصح أو الداعية الرابع فاض الكيل بأهل المدينة وبالدعاة فأمسكوهم قتلا وذبحاً فدمدم عليهم ربك بالعذاب .....

ولمّا كان الحوار خطابا فالنكتة فيه تصلح مدخلا جيدا للسرد المثلي، وهذه لفتة فنية تمهد لأحداث المثل ومداخلاته.

وأنّ أهم ما يميز ضرب المثل هو مصاحبته للتأكيد الشديد فالمثل مصاغ بكلمات إذ يجب الاعتناء به على نحو استثنائي ، لذا احتف بقرائن توكيدية واشارات معنوية اثباتا ونفياً للاحتياط والاحتراز من إهماله.

لذا فإنّ أساليب التوكيد والتكرار مطردة ورودا ؛ وهذا ما يعطي مؤشراً واضحا على قصدية تضمين المثل لمثل هذه العناصر بهدف ترسيخ الثابت العقائدي والجوهر المثلي في النص....

يقول صاحب الكشاف في سبب تعدد المؤكدات التي ذكرت في سياقات أمثال السورة.من قبيل قوله تعالى ((إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ))(75). وقوله تعالى.((قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ))(76):((فإن قلت :لم قيل :إنا اليكم مرسلون أولا وإنا اليكم لمرسلون آخراً ؟ قلت:لأنّ الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن انكار ...)).(77)

فالصورة الإعجازية تكمن في الإرسال المتعدد من الرسل ،وهي تدعو الى الله ، ولكن القرية لم تلبي الدعوة فتعززت بثالث وهذا التعزيز هو دليل على استمرار أهل القرية في طغيانهم وإلا ماكان ذلك التعزيز ، فضلا ًعن الرجل المؤمن الشجاع الذي جاء من أقصى المدينة يسعى (وهو مؤمن آل يس). ونجد أنه لا ذكر للجنة للثلاثة الباقين لأنّ المشهد القرآني يركز الضوء على هذا المؤمن، وبذلك كان السياق يدعم أنّ هذه المجموعة الايمانية هي ضمن الخط الهادي الذي أوقع الحجة على القرية ، وإنّ عدم إطالة القرآن في إبانته لاستيفاء تلكم الإشارات الدالة على الحدث كان من إيجازه المعجز؛ ليتوّج صورة صراعية بين دعاة الحق الذين أرسلهم عيسى (ع) الى قرية انطاكية وبين مردة القرية .

وكذلك الحال في التناسب والمقتضى البياني في إحكام المثل, من ذلك يقول الرازي في قوله تعالى((وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى....)(78) : ((وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان:أحدهما :انه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة وذلك لأنه لمّا ((جاء من أقصى المدينة رجل))وهو قد آمن دلّ على أن انذارهم واظهارهم بلغ الى أقصى المدينة .

وثانيهما:أن ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعي المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الاوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد، كما أنّ ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم .)) (79).وعليه فالتسلية للنبي محمد بذكر المرسلين عليهم السلام تسلية لقلوب أصحابه بذكر سعي المؤمنين ،وكلّ هذا موجود في مثل مؤمن آل ياسين ،وعندها فالتسلية متحققة فيهما بمثل الساعي.

ولمّا كان الأسلوب القصي هو نوع من الإسطار أو التنضيد التدويني المترابط بحسب نظام تكويني ثابت تراعى فيه هندسة النص، فهو أنقع غليلا وأوقع جانبا من النصوص الأخر لأثره النفسي المحاكاتي ،إذ ينطبع القص في الذاكرة على نحو أشد تثبتا من غيرها .لذا كان عرض المثل بالصورة القصصية قصديا؛ لأنها تحكي مدافعات أهل الباطل المعروفة،وهي أقوال الملأ دائما ....وأمة الرسل تكذب الرسل، ولم تكن هذه بدعا منها؛ بل في هذه تجاوزوا الى حدّ قتلهم بدليل قولهم: ((قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (80) ولكنّ المثل يخلو من الاشارة الى نوع المعبود الذي كانت تتبناه هذه الأمة الفاسقة وفي الأغلب أنّها الأصنام.

وعلى ماتقدّم فالمهم في المثل أنّه يبتعد عن الظاهر والقصّ الواقعي؛ لأنّه كلما كان أكثر ابتعادا كان أولى بالتأثير والصدع بالنفس ،وهذه من مسوّغات إيراده ؛ حتّى يستوفي شموليته في تبيان الصورة المقصودة منه. (81).

إيجازها وتثويرها :
يتركّز الايجاز في مناطق المثل لحاجة الصّياغة العقائدية والفنية الى هكذا اسلوب مركّز في الدلالة والاستعمال ، وهذا مما يضفي طلاوة بيانية فائقة على نظم الأمثال وصياغتها ....
أمّا التثوير فهو عملية استنباطية لأرضية المثل الخصبة بما يفيد استلالات قصدية معينة من مفهومات المثل وسياقاته، وعندها يمثل الايجاز التثويري خبرة بيانية متراكمة في موقعها، فهو حتماً مصيب في تصويراته وأحكامه؛ لتمكنه من فلق المعاني الحية.ومن هنا فالإرجاع المثلي يكون بالاستناد الى الحكمة القديمة وعلى هذا المساق يسير القرآن أيضا.فضرب الأمثال للقاريء بما هو حاضر عبر تجربة قصصية قديمة كأن تكون قصص موسى أو عيسى (ع) وأصحابهما .. وكلها مقدمة لأصحاب نبينا محمد (ص) المتقدمين زمنيا على أولئك الماضين عليهم أي أن محمدا وأمته تستقي حكم وأمثال تلك الأمم...
وعليه فاستحراث النص القرآني من المهمات التفكيكيّة والفنيّة للجنبة البلاغيّة للنّص وهذا الاستحراث يضفي طابعا دراسيا وعلميا بحتا على هندسة النص ، وعندها يصبح المثل القرآني بيانيا ركيزة مشخصة للعوامل القاصدة في النص الإعجازي من حيث ((التعبير النفسي بالأمثال والقصص وغيرها)) (82) ،أي أنّ المثل يشاكه الهندسة النفسية تأثيراً وأثراً فهو يتبادل الانفعال مع النفس لكونه فيه هدى للذين آمنوا ، وهو بذلك أيضاً خاضع لمقاييس الإعجاز العامة.
وإنّ القضية الأهم التي يشتدّ عليها التركيز في السورة هي كبقية السّور المكية قضية البعث والنشور .ومن هنا فهذه القصة تنطوي على جهتين كل منها تساق الى الجزاء:الأولى :إبادة وإهلاك ((الصيحة للقوم الطاغين))(83) ومن الطرف الآخر بعث وإحياء في ((إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)) (84) للموتى على نحو عام.
ومن هذا الباب ((وردت الإشارة الى القرون المكذبة وإهلاكهم في يس بقوله تعالى: ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ))(85) وجاء ذلك مفصّلا في الصّافات في قوله ((بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)) (86) الى آخر السورة)) (87) إذ نجد إيجازاً في يس، وتفصيلا في الصافات، وهكذا يتواءم القرآن نصا ومقصدا ، فتارة تكون آية من يس موجزة لغيرها في سورة أخرى ،وتارة تكون مفصّلة لموقع ثالث في النص القرآني ، وهذا من باب المعابر أو المداخل الإعجازية وبما يتواءم وهندسة النص وصولا الى الإيجاز المعجز لقوله تعالى:((وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)) (88).دلالة على العموميّة في استيفاء السّنة الالهية للحساب .
وبالإمكان أن يرد الإيجاز والتثوير بخلاصة الرسالات السماوية، لأنه يحمل غاياتها كما يقول المرحوم الفياض((...أنه ما من أمّة من الأمم التي نزلت بها عقوبته وحلت بساحتها نقمته إلا وقد ضرب لها الأمثال حتى اذا لم تضع حدًا لغواية تلك الأمة وعصيانها أنزل الله بها ما أنزل وأحل بها ما أحل، فقال عز من قائل بعد أن ذكر من ذكر ممّن أهلكهم واستأصل شأفتهم من الأقوام :((وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً..)) (89) . (وإذا قارنا هذا بقوله ((..وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً))(90) .((أدركنا أنّ الأمثال خلاصة الرسالات السماوية فالعذاب لا يصيب أمة لم تضرب لها الأمثال كما لا يصيبها مالم تبلغها رسالة السماء فتعرض عنها)) (91).
إذًا تتشكل رسالة السماء بعد التتبير النهائي بصيغة مثل يستضرب للقوم الآتين بعدهم للعبرة والتنبيه والاتعاظ .
وإذا كانت الأمثال هي خلاصة الرسالات السّماوية كما قال، فمن هنا ينهض عندنا تناقض؛ ذلك أنّ بعضها لا يصلح أن يكون خلاصة كمثل الذباب والبعوض إلا بالتأويل الموائم؛ لأنّ المثل هو المستلزم الأكبر ولا سيما هذه الكائنات الضئيلة التي لا تستحق عند المتلقي ضرب المثل للوهلة الأولى لأنه سيستهزيء بها وعندها تذهب قيمة المثل بالمرة ولكن تثبيتا على مبدأ المثل يأمره الله بالتمعن والتدبر في أمثاله المضروبة ، وهي في كائنات ضئيلة ؛ لذا جاء استهزاؤهم فقالوا ماذا أراد الله بهذا مثلاً ً .
ويتبوأ المثل موقعا متفرداً في قلب القرآن (في هذه السورة) إذ تتجلى منه بوادر قوية لتوضيح بقية سمات السورة فهو كالشمس الساطعة التي تضفي نورا بهيا على بقية آياتها وهو مثل القرية التي جاءها المرسلون ....ولكن قصّة القرية هل هي مثل أو واقع؟ فمن المعروف أن المثل الذي حكمته المستلة مجردة مثله مثل الذباب له مصداق خارجي لكن إيراد القرآن للمثل (الذباب) له انعكاس مفهومي يخالف المفهوم المتعارف اذ المثل ينطوي على حكمة خفية مرتبطة على نحو ما بهذا الحيوان الضئيل ، وعندها نجد ارتباطا دلالياً بين الحكمة المتوخاة وسلوك الذباب ....وقد يرد سؤال أنه كيف يتحول المثل الى قصّة تاريخية ..:؟ نقول:إنّ الأمثال تتصل بالتاريخ وتستمد مواضيعها منه وهذا أسلوب مطرد في القرآن وفي هذه السورة عند قصة رسل عيسى (ع)إذ يتداخل الفكر الصحيح مع المعجزة التي تتحلى بها رسل الله وبما يخصّ عيسى بعد أن ألقوا عليهم حجة المنطق الصحيح ، بحيث أصبحت لله المعذرة في إنزال الصّيحة بهم .
وهناك موضع آخر للقرآن يشابه هذا التداخل في سورة البقرة (مثل عزير).. (92) كالذي أماته الله (فربط بين تنشيز العظام وهو مثل تعليمي وغير واقعي في توضيح كيفية احياء الموتى ارتبط مع شخصية واقعية وهي(عزرا) صاحب الحمار... وهنا أيضا يرتبط الخيال مع الواقع بكينونة قرآنية لاسبيل إلا الإعجاز الى تفسيرها ...ويقصد هنا بالخيال الجانب اللامنطقي وهو أن ينام أحد مئة عام فهذا عنده من الخيال وهو من الله إعجاز ..إذاً فالاعجاز عند الله لابدّ وأن يأخذ طريق التطبيق في ساحة الواقع فعصا موسى ليست بسحر ، بل إعجاز حقيقي ، ولكن عصي الطرف المقابل هي من السّحر المذموم ،لذا لم تصمد في ساحة المنازلة الالهية أي أن الساحة الالهية منزهة عن إتيان الأعمال المذمومة في الشريعة، وإن كانت ظاهراً لاتخضع للمنطق البشري لأنّها (معاجز).

فعندنا المثل وهو يمثل عالم الامتثال(الخيال) ومحاكاة المثل هو واقع يؤيد نصية المثل وسرديته ،أمّا الكينونة القرآنية بطرفيها، فهي تعني الارتباط والتعالق بين عنصري الحدث ، وهما المثل ومحاكاة المثل على أرض الواقع ، وهذا الارتباط الجدلي ينتج إيعازاً نفسياً وتأثيراً وعظياً في لباب النفس ومنافذ تهذيبها .

ويقول الدكتور الصغير:((ويرجح عندي أن يكون المثل في ا لقرآن قد استعير لكل شأن ذي بال، ولكل حدث مستغرب، ولكل قصة أريد بها العبرة ،ولكل وصف لم يتعارف عليه العرب من ذي قبل ، ولكلّ معنى لم تستطع الأفهام سبر غوره وتشخيص فحواه الا بتقريبه تنظيرا وتمثيلا حتى تداوله الناس واستوعبته العقول.)) (93)....وهنا يبيّن الدكتور أن المحاولات التقريبية من خلال المقولة المثلية تستدعي حافزاً ارتباطياً ذا علاقة بالمؤثرات النفسية بالاتجاه الايجابي ؛أي أنّ المثل عنصر ارشادي في تهذيب النفس..والإعجاز عن الإتيان بمثله واضح في ضرب الأمثال على بقية النصوص بدليل التثوير، لأنّ استقطاب جميع عناصر المثل البيانية في وحدة واحدة يستدعي الظهور الأكبر لفاعلية المثل في السلوك الأخلاقي للانسان، ومن ثمّ يضيف الدكتور فقد: ((زاد المثل القرآني على هذه المعطيات بما له من رصيد مجازي وأفق استعاري وطبيعة تشبيهية مضافاً الى الاستعمال في المورد الحقيقي))(94) ..وعندها ينطبق المثل على عدّة حقائق ، وهو غير محدود لازماناً ولا مكاناً ،فهو حقيقة اعتبارية واستشهاد مثلي (بالماقبل والمابعد) :وهي مجاورات النصّ وتطبيقاته الجريانية المرتبطة بالزمان الحادث والذي لم يقع... أي: استفتاح بالعبرة الماضية على الاستشراف المستقبلي.

الخاتمة ونتائج البحث:

رصد الباحث الملاحظ الآتية:

1- إنّ المثل عن الرسل عليهم السلام كالمثل عن محمد(صلى الله عليه وسلم) بمعنى أنّ المثل السماوي عام من دون لحاظ دين أو ملّة ...ولهذا فعموميته من عمومية ضرب الله للأمثال ومن عالمية الدين الخاتم ... وعلى ذلك فخاتمية الدين المحمدي لها لوازم في أنّ الأمثال تأخذ مساحة كبيرة في كتابه المنزل مقارنة بالكتب الأخر ،لأنّ الدين المحمدي هو الدين الخاتم والأكمل لجميع الشرائع السابقة كما أنّ محمدا أفضل الأنبياء وعليه فصاحب الفضيلة يمتلك الكمّ الأكبر من الأمثال في وحيه المنزل.

2- يعتمد القرآن على الحكمة القديمة لا من باب الزمان المتقضي ، بل من باب الذكر والاعتبار، اذ انّ تأطيره له ميزة في تقديم العرض المثلي على نحو تمهيدي، ثمّ الدخول في صلب الموضوع ، ثم الإفادة المثلية وهي تمضي بركب الإعجاز في كلّ موضوعاته وقضاياه وأسراره.

3- يمكن أن تقع الألفاظ الجارية مجرى المثل في السياق المثلي من باب حكمها الوعظية اللائقة أي أنها تمثل فحواها وعندها يمكن أن تندرج تحتها من باب الاعتبار...

4- حث القرآن الكريم على تذكّر الأمثال وتفكّرها وتدبّرها في آيات كثيرة....تحقيقا للفائدة القصدية المتمثلة في العظة والاعتبار..بمعنى أنّ مهمة الآلية الذهنية تكمن في استقبال المؤشرات المثلية ودفع العنصر العقدي الى الامام خدمة للجانب الديني وهو المقصد الرئيس في ايراده...

5- توافر الدلالات الإيحائيّة المصوّرة كـ (الجعل، والاغلاق،والاذقان، والاقماح، والسد،والطمس، والمسخ...وغيرها)في سياقات المثل لترسيخ أثره النفسي عند المتلقي ، وهو ترسيخ لمبادئه القصديّة المنطلق منها .

6 - من مفارقات الدعوة الالهية التي سردها القرآن في سورة يس أن يكون الذين اهتدوا أقلّ من المرسلين(مؤمن واحد إزاء ثلاثة مرسلين)، وهذا دليل على جحود القرية بأنعم الله ، وقد قام هؤلاء الرسل بواجبهم حقاً وآمن بهم واحد فقط ، وهذه إرادة الله في شمول القرية برحمته أو عدمها ، إذ تقابل هذه القرية قرية يونس عليه السلام وقد شاء الله سبحانه أن يخلصها من العذاب مع أن رسولها ذهب مغاضبا . إذاً فالمشيئة الالهية له سبحانه إن شاء عذب وأهلك ، وإن شاء عفا وأبقى.

7- تعدّ الأمثال وسائط مشتركة بين عالمي الواقع والخيال ،إذ يجعل الاعجاز منها مفهومة ....وذلك بلحاظ أنّ المثل مكوّن حيّ يتعاطى ويعطي ..يتعاطى الصيغ البلاغية لكي يتشكل بها ولتكون مادته البنائية .أمّا معطياته القصدية فهي تكمن في إلفات النظر والدلالة على عظم الخالق وسموّ الاطروحة الدينية ونشر المواعظ؛لأنّ كل الأمثال السماوية مسخرة باتجاه العقيدة الحقة والدين الكامل.

8- إنّ خصوصية المثل ملزومة بخصوصية النص، وهذا لايمنع من وجود مواضع سياقية مشتركة بين الأمثال، وهذا من باب الإعجاز القرآني بعامة، ولكن المهم من كل ذلك أنّ القرآن يكرر العاقبة للمتقين ليحقق مسوغًا مهما في إيراده، فضلاً عن تأويل أو تفسير بعضها بعضاً على وفق خصيصة التكاشف القرآني بالقرآن.

9- تضرب الأمثال للمساوقة في مواضع التمثيل لاستخلاص العبرة، وعليه فموقع التمثيل متنوع فقد يكون طويلا كقصة، وقد يكون قصيراً موجزاً على وفق مطالب الإعجاز؛ لأنّ الترتيب القرآني من ضمن المهمة الإعجازيّة وإن انطوى فحوى المثل على عناصر قصديّة في مضمون الآية وتشكيلها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين...

الهوامش والإحالات:

(1) نهج البلاغة ص460.
(2) مفردات ألفاظ القرآن ص759.
(3) الميزان في تفسير القرآن73/17 .
(4) الاتقان في علوم القرآن 44/4.ومعترك الأقران في إعجاز القرآن352/1.
(5)الإتقان في علوم القرآن44/4.
(6)الاتقان في علوم القرآن44/4 .ومعترك الأقران في اعجاز القرآن352/1.
(7)الأمثال في القرآن الكريم ص253.
(8) ينظر: تفسير الكشاف 116/1.
(9) البرهان في علوم القرآن488/1.
(10)دراسة في البلاغة والشعر ص38.
(11) الأمثال في القرآن الكريم ص70.(والنصّ منقول عن محاضرات الاستاذ أمين الخولي في أمثال القرآن).
(12) سورة الرعد / الآية 17.
(13)تلخيص البيان في مجازات القرآن ص178.
(14) سورة الزمر / الآية 27.
(15) سورة ابراهيم /الآية 25.
(16) تفسير البصائر699/33.
(17) سورة التحريم / الآيات10-12.
(18) الأمثال في القرآن الكريم ص55-56.
(19)سورة البقرة / الآية 26.
(20) تفسير الكشاف 123/1.
(21) تفسير الكشاف 116/1.
(22) سورة الأعراف/ الآيات 175- 177.
(23) مدخل الى القرآن الكريم258/1.
(24) التصوير الفني في القرآن ص137.
(25) سورة يس / الآية78.
(26)سورة الكهف /الآية32.
(27)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المجلد السادس 260/8 وينظر :الأمثال في القرآن الكريم ص256.
(28) سورة النحل / الآية 74.
(29) سورة الإسراء/الآية 48.
(30) سورة الإسراء /الآية 89.
(31) ينظر: الأمثال في القرآن الكريم ص268.
(32) سورة يس /الآية 78.
(33) ينظر :البلاغة تطور وتاريخ ص261..والأمثال في القرآن الكريم ص37-39.
(34)ينظر:الإعجاز البلاغي ص101-102.
(35) الآية:لقوله تعالى:((...وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)) سورة التوبة / الآية 40 .
(36) سورة الإسراء/ الآية 89.
(37)ينظر :إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص86.
(38) ينظر :الميزان في تفسير القرآن 63/17.
(39) ينظر :إيجاز البيان في سور القرآن ص148-149.
(40) سورة يس / الآية 12.
(41) التفسير الكبير 113/26 .
(42)ينظر :جواهر القرآن ص63،48.ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور240/6-246.
(43)التفسير الكبير 26/ 113 .
(44) في ظلال القرآن 2956/5.
(45) ينظر :مفاتيح الجنان ص 13.
(46) سورة يس / الآية13.
(47) تفسير الكشاف 7/4.

(48) سورة يس / الآية 24 .
(49) سورة يس / الآيتان 78-79.
(50) تفسير الكشاف 29/4.
(51) فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن ص245.
(52) ينظر: كتاب دلائل الاعجاز ص 80-83..و100-102..و526.
(53) التفسير الكبير 113/26.
(54) سورة يس /الآية 7.
(55) سورة يس /الآية30.
(56) سورة النحل / الآية 74.
(57) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية ص156.
(58) سورة البقرة /الآيتان 1-2.
(59) الحروف المقطعة في القرآن الكريم(بحث) ص446.
(60) ينظر: التفسير الكبير 39/26.
(61) سورة يس/ الآية 30.
(62) سورة يس / الآية 37.
(63) سورة يس / الآية 41.
(64)سورة يس / الآيتان 80 -81.
(65) في ظلال القرآن 5/ 2968.
(66)سورة يس/ الآيات 37-39.
(67) إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية ص286-287.
(68)الميزان في تفسير القرآن89/17.
(69) سورة يس / الآية 52.
(70)تلخيص البيان في مجازات القرآن ص274.
(71)سورة يس /الآية 70.
(72) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص275.
(73) سورة يس / الآية18.
(74) سورة يس /الآية 19.
(75) سورة يس / الآية 14.
(76)سورة يس / الآية 16.
(77) تفسير الكشاف 8/4.وينظر :نظم الدرر في تناسب الآيات والسور251/6.
(78) سورة يس / الآية 20 .
(79) التفسير الكبير 54/26.
(80)سورة يس / الآية 18.
(81)ينظر :كتاب أسرار البلاغةص108.
(82)إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص130.
(83) تنظر:سورة يس الآيات 29-و-49..
(84) سورة يس/الآية12.
(85)الآية 31.
(86) الآية 12.
(87) تناسق الد ررفي تناسب السور:هامش ص114.
(88)سورة يس / الآية32.
(89) سورة الفرقان /الآية 39.
(90) الإسراء/15.
(91) الأمثال في القرآن الكريم ص293.
(92) الآية 259.
(93) الصّورة الفنية في المثل القرآني ص72
(94) المرجع السّابق والصفحة نفسها.

كشّاف المصادر والمراجع

- خير ما نبتدىء به القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن: للعلامة جلال الدين السيوطي/تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم(ط3) اوفسيت – مطبعة أمير –قم-الجمهوريةايران الاسلامية 1373-1415هـ.
- الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) للدكتور محمد محمد أبو موسى(ط1) مطابع المختار الاسلامي-مصر-1405هـ/1984.
- إعجاز القرآن: للباقلاني (لأبي بكر محمد الطيب) تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف - مصر. القاهرة.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: تأليف مصطفى صادق الرافعي (ط6) مطبعة الاستقامة - القاهرة/ 1375هـ - 1956م
- الأمثال في القرآن الكريم:د/محمد جابر الفياض(ط1) –دار الشؤون الثقافية-بغداد 1988.
- إيجاز البيان في سور القرآن: محمد علي الصابوني (ط2) مكتبة الغزالي، 1399هـ - 1979.
- البرهان في علوم القرآن :للامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي /تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم(ط1) دار احياء الكتب العربية –مصر- 1376هـ-1957.
- البلاغة تطوّر وتاريخ:الدكتور شوقي ضيف (ط7) دار المعارف –مصر
- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب (ط2) دار الشروق/ قم - 1412 هـ.ق.
- تفسير البصائر :للاستاذ المحقق أبي محمد يعسوب الدين رستكار الجويباري (ط1) مطبعة فروردين/1414 هجري قمري – 1372 هجري شمسي..
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): للامام الفخر الرازي (محمد بن عمر بن الحسن ت606هـ) (ط3)، مطبعة مكتب الاعلام الاسلامية/ طهران 1411 هـ.ق.
- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :لجار الله محمود بن عمر الزمخشري وبحواشيه أربعة كتب – رتّبه وضبطه وصحّحه : محمد عبد السلام شاهين (ط2) دار الكتب العلمية –بيروت /2003-1424 هـ..
- تلخيص البيان في مجازات القرآن:تصنيف الشريف الرضي /حققه وقدم له وصنع فهارسه: محمد عبد الغني حسن-(ط2)-دار الأضواء للطباعة والنشر/بيروت-/ 1406 هـ -1986.
- تناسق الدرر في تناسب السور: للحافظ جلال الدين السيوطي - دراسة وتحقيق: عبد القادر احمد عطا (ط1) دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان 1406هـ/ 1986.
- الحروف المقطعة في القرآن الكريم (بحث): عبد الجبار حمد حسين مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة ، العدد 16 لسنة 1980.
- دراسة في البلاغة والشعر :د/محمد محمد أبو موسى (ط1)نشر مكتبة وهبة /القاهرة1411 هـ-1991.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :تأليف العلامة شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (ط2) دار الكتب العلمية _بيروت /2005-1426 هـ.
- الصورة الفنية في المثل القرآني:د/محمد حسين الصغير-(ط1) دار الهادي للطباعة والنشر/ بيروت -1412 هـ /1992.
- فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن :تأليف الشيخ زكريا بن محمد الأنصاري ت 925 هـ/قرأه وعلق عليه - د: يحيى مراد –(ط1) دار الكتب العلمية -بيروت 2003-1424هـ.
- في ظلال القرآن: بقلم سيد قطب (ط 10) دار الشروق - مصر 1401هـ - 1981.
- كتاب أسرار البلاغة:تأليف الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني / قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر (ط1)مطبعة المدني / المؤسسة السعودية بمصر1412 هـ – 1991.
- كتاب دلائل الإعجاز: للشيخ الامام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني - قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر (ط5) الشركة الدولية للطباعة - القاهرة 1424هـ - 2004م.
- مدخل الى القرآن الكريم (الجزء الأول: في التعريف بالقرآن) الدكتور محمد عابد الجابري (ط1) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت لبنان 2006.
- معترك الأقران في اعجاز القرآن:للعلامة جلال الدين السيوطي/ ضبطه وصححه وكتب فهارسه :أحمد شمس الدين (ط1) دار الكتب العلمية - بيروت -1408هـ-1988.
- مفاتيح الجنان:للشيخ عباس القمي(ط3) دار الكتاب العربي-بيروت 1426 هـ-2005.
- مفردات ألفاظ القرآن-للعلامة الراغب الأصفهاني/تحقيق:صفوان عدنان داوودي(ظ1)مطبعة سليمان زادة- قم -1426هـ.
- الميزان في تفسير القرآن (للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي) (ط1) المحققة - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت 1417هـ - 1997.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : للإمام برهان الدين ابي الحسن البقاعي خرج آياته واحاديثه ووضع حواشيه : عبد الرزاق غالب المهدي (ط2) دار الكتب العلمية بيروت - لبنان 1424هـ / 2003م.
- نهج البلاغة: للامام علي بن أبي طالب/جمعه الشريف الرضي-تقديم وشرح الشيخ محمد عبده (ط1) مؤسسة المختارللطباعة-مصر 1427 هـ-2006